سيكولوجية الكذب

للاستاذ احمد عطية الله

لا يكفي ان ندعو تغيير حقيقة من الحقائق كذباً ؛ لانه لا بد ان يعرف من غير احدى هذه الحقائق انّ ما تفوّه به مخالف للواقع . لذلك وجب علينا ان نضع فاصلاً بين هذين النوعين : كذب المعرفة وكذب الجهل . ولهذا التفريق شأن كبير في دور القضاء. فالقاضي يتطلب من الخصوم او الشهود تقرير الحقائق كما وقعت بعد ان يقسموا يميناً على ان يبروا بوعدهم . ذلك لان فساد الاستنتاج او خطأ الاحكام قد يرجع الى فساد الادلة

وكثيراً ما يحدث ان تتناقض هذه الادلة ويتضارب الشهود في اقوالهم ؛ ومع ذلك فالقاضي يشعر بما نسميه « حسن نية الشهود » اذ لا داعي في بعض الحالات لتلفيق . فلا مناص والحالة هذه ان يزنَ الحَكَمُ هذه الاقوال بميزان يعتمد فيه على دراسة سيكولوجية لهؤلاء الشهود اثناء افضائهم باقوالهم او في اثناء وقوع الحادث او الجريمة. لذلك كانت الخبرة والمران اكبر عون للقاضي في مثل هذه الحالات ، بل وقد تدرج بعض علماء النفس لوضع مقاييس خاصة واجهزة ابتكرت لاختبار درجة صدق الشاهد اثناء ادلائه بمعلوماته

يعتمد العلم الحديث في ابحاثه على المشاهدات الحسية « Sense Observation » ويرفض كل دليل لا يعتمد على هذه القاعدة ، ومع ذلك فهذه الحواس التي هي اداة التحقيق والفصل كثيرة الخطأ سريعة الخداع — فلذلك لا نرى عدلاً ان نسيء النية بكل ما يقرره البعض اذا تنافر ومعتقداتنا الثابتة . فألعاب الحواة المختلفة تثير دهشتنا لاننا لا نكاد نصدق امكان وقوعها

فتغيير الحقائق الذي يرجع الى قابلية الحواس للخداع والوهم ليس لنا ان ندعوه كذباً بالمعنى الصحيح . ولما كانت الحواس بطبيعتها ترتقي وتدق بالاستعمال والمران كان هذا النوع من الكذب منتشراً بين الاطفال ؛ فالطفل لا يتفق معنا على ان الاشجار التي يراها من نافذة القطار ثابتة لان عينيه تقرر له بانها تتحرك بالنسبة اليه . ولمثل هذا السبب سجن غليليو لما حاول ان يقنع مواطنيه بان الارض دائرة حول الشمس

وكما أن الطفل يرى الحقائق بعينيه ويسمعها باذنيه ، فهو له القدرة على تخيلها اذا اراد ، واذا علمنا ان قدرة الطفل على التخيل واسعة مرنة في سنيه العشر الاولى ، فلا غرابة اذا رأينا ان كثيراً مما يتصوره الطفل يختلط بما يقع في دائرة حواسه ، فيعجز في كثير من الاحيان عن ان يميز بين ما يحسه وبين ما يتخيله

ومن السهل على المربية او الأم ان تميز هذا النوع من الكذب لاسيما في تلك الحالات التي يكون الدافع لها الفزع او الخوف

فالطفل قبيل النوم وفي حجرته المظلمة تتجسم له ابطال القصص الخرافية التي سمعها في الصباح ، وتستحيل له ظلال النافذة او القناطر اشباحاً ومردة وهمس الهواء وحفيف الستائر أصواتاً واضحة او دبيب حشرات مؤذية . بل كم من صبي يستيقظ فجأة وهو قابض على كفيه حذراً من ان تفلت منها قبضة السراعم التي رآها في حلمه ، ولا يتورع لاثبات صدق قوله عن ان يقسم لنا ايماناً غليظة ، او ان يبحث عن هذه السراعم المفقودة بين لفائف غطائه . فما سبق نقرر ان دراسة الدوافع للكذب ضرورية لتعرف طبيعته . وهنا ننتقل من الطفل الصغير الى البالغ

لماذا يتعمد المتهم بجريمة أن يغير حقيقة من الحقائق ؟ ذلك لأنه يشعر بأن ذكر هذه الحقائق يرجع عليه باللائمة أو بالعقاب . فكذبه نتيجة اختيار لسلكين يعرف عاقبة كل منهما ، هذا الى الاقرار والعقاب ، وهذا الى النكران ودرء الخطر . فالكذب وسيلة لتلافي بعض الأخطار التي قد تقع على الفرد — والميل لتلافي الخطر بالهرب منه غريزة عميقة في النفس تسعى الى تحقيقها بشتى الوسائل . والنكران وسيلة سهلة اذا أمن الفرد عقابها المزدوج ، عقاب الاجرام وعقاب التضليل

فيحدث إذ ذاك نزاع داخلي وصراع بين طبيعتين ، غريزة المحافظة على النفس من ناحية ، والرغبة في تحقيق مبدإ أخلاقي سام يؤمن به الفرد من ناحية أخرى . ونشاهد آثار هذا الصراع في تلعثم المتهم وتردده وارتباكه — حيناً يقرر وحيناً ينقض ما قاله من قبل إذا بدت له وجهة نظر أخرى . والكذب عند الصبيان أو البالغين يرجع في بعض الحالات الى ذلك الشعور بالانتصار والظفر الذي يملأ نفس الواحد منهم إذا رأى أن تغييره لحقيقة من الحقائق يثير الدهشة عند سامعيه أو الاهتمام والعناية ، فيستحيل الشك عنده حقيقة يصدقها هو لكثرة تكراره إياها ويتوسع فيها حتى ترسخ فيه عقيدة

فالشاهد الذي يرى ان لأقواله قيمة لم يعتد أن تقدّر هكذا تقديراً خطيراً ، ولم ينظر إلى أمثالها في حياته الماضية نظرة احترام ، يقفز مثل هذه الفرص ليشعر من حوله

مقامه ومقام معلوماته ؛ لا سيما إذا وقف مع من هم أرفع منه قيمة على قدم المساواة أمام منصة القضاء . والدوافع التي تبعث العقل إلى الكذب تدور بأجمعها حول رغبته في نكران نقص في سلوكه أو أعماله ، ولما كان تلافي هذا النقص يتطلب جهوداً قد يقصر عنها الطفل الضعيف في قواه العقلية أو ذو الخيال الفياض نراه يحاول جحود ذلك بالمغالاة في أقواله والاكثار من ذكر الدقائق التافهة التي يظن أنها قد تأخذ بلب السامع لها . والدافع للكذب في مثل هذه الحالات قد لا يشعر به الطفل فهو يكذب على نفسه كما يكذب على غيره ويتغالى في تقديراته للمشاهدات أو النتائج كما يتغالى في حديثه مع سواه

فالطفل الذي نخونه ذاكرته عند قص حكاية شائقة سمعها لا يرى بدًّا من أن يستعيض عما فقده بحوادث يلفقها لكي لا يفقد ثقة سامعيه ، كما تراه يخلط بين الحقيقة وبين ما يتخيله إذا رأى أن ذكر الحقيقة مجرَّدة لا يحدث في النفس ذلك الأثر الذي كان يتوقعه ، فيضطر لتلافي ذلك بأن يضيف الى قصته طرفاً من ابتكار خياله يحقق له هذا الغرض . وشعور الطفل أو الصبي أو الرجل بعدم أهمية أحاديثه عند سامعيه او شعوره بالعجز عن التعبير عن مراده تعبيراً صادقاً يحدوه لاستعمال أساليب مبالغ فيها لتحقيق هذه الأمنية ، حتى يثبت فيه هذا الميل ويستحيل طبيعة ليس في مقدوره التحول عنها

وهنالك كثيرون ممن اذا سألتهم عن ثمن شيء ابتاعوه رفعوا من قيمة هذا الثمن ولو بزيادة دراهم قليلة قد لا تؤثر في القيمة الكلية لهذا الشيء ولكنهم بذلك يحققون هذا الميل الذي رسخ في قرارة أنفسهم . وقد يأخذ الكذب مظهراً آخر هو التغالي في تقرير الصعوبات التي تعترض الواحد من هؤلاء في حياته اليومية ، فلا يكاد يتوسط جمعاً من الناس حتى يبدأ بسرد ما حدث له بطريقة تمثيلية يستعمل فيها خياله استعمالاً مرناً ، حتى إذا فرغ من ذلك ووجد رغبة من سامعيه ، اعتدى على ما سمعه عن غيره ونسبه الى نفسه

وقد يأخذ الكذب عند الصبيان مظهر اختلاق الاعذار وتدعيم الحجج التي يحاول بها الواحد منهم أن يبين أن فشله في محاولاته العديدة لا يرجع الى نقص فيه أو ضعف في قدرته بل هو راجع إلى أسباب لا طاقة له في دفعها كالحزن الشديد لمصيبة حلَّت به أو لضعف جثماني طبيعي ، أو لاستعداده للدوار أو الانفعال . فالطفل الجبان الذي يرهب أن ينضمّ الى زملائه في العابهم ويفضل الانزواء يبتدع مثل هذه الأعذار المكذوبة لكي يقنع نفسه فلا يشعر بنقصه ولكي يقنع من يحاول استفزاز نخوته ويتعمد إساءته من رفقائه مصرحاً بأنه ينظر إلى العابهم كسلوك طفولي يتنزه أن يهوى الى مستواه ، ويروح يعلن ذلك في كل مناسبة حتى يؤمن بأعذاره ويعتقد صدق أكاذيبه

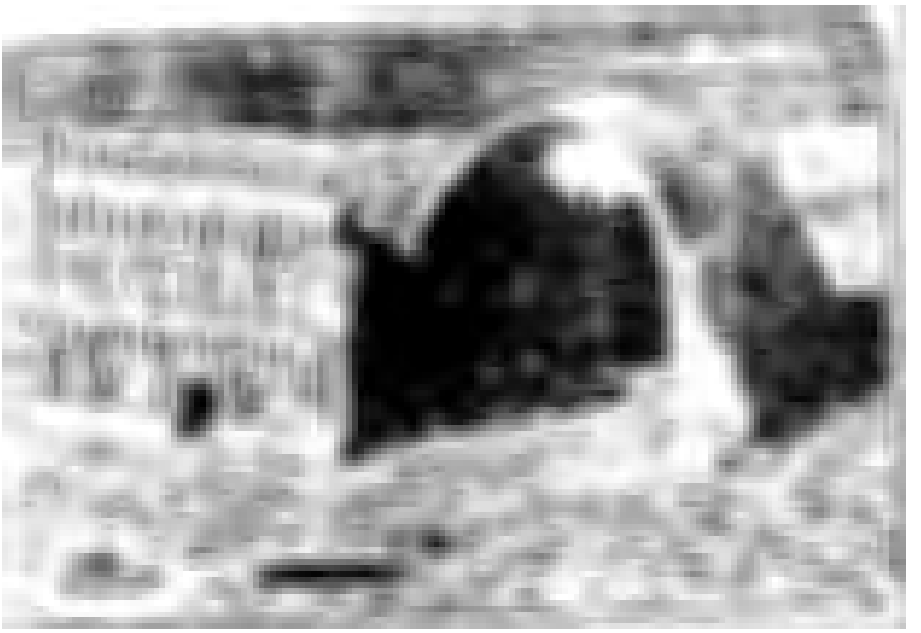

مشهد طيسفون — طاق (قنطرة) كسرى — من الجو

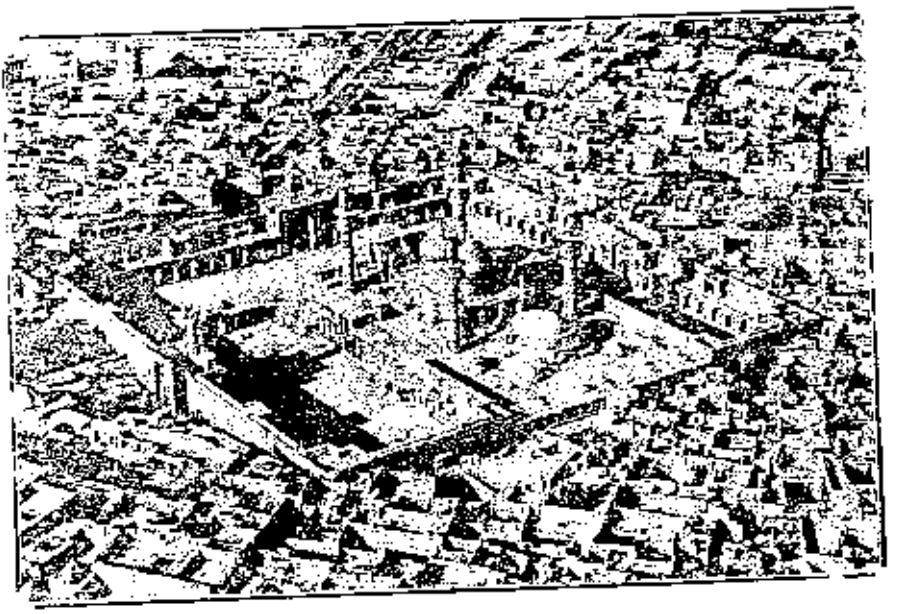

منظر جامع الكاظمين ذي القباب المذهبة ببغداد من الجو

مقتطف دسمبر ١٩٣١

أمام صفحة ٤٤٩